الفصل الثالث
غزوة بني قينقاع
١٥ شوال سنة ٢ هـ/٩ إبريل٦٢٤.

المبحث الأول
ملخص الغزوة

كان سبب هذه المعركة أن رسول اللهﷺ لما قدم المدينة وَادَعَ يهودهًا، وكتب بينه وبينها كتاباً، عاهدهم فيه وأمنهم على أنفسهم وأموالهم وحرية دينهم– كما بينًا - فلما انتصر المسلمون على الوثنيين في بدر وقدم النبي ﷺ المدينة غانماً منتصرًا، بغت يهود بني قينقاع وحقدت على انتصار المسلمين، وقطعت العهد. وكانوا أشجع يهود، وكانوا صاغة، ولما ذهب إليهم النبي في سوقهم يدعوهم إلى الإسلام، ردوا عليه بكلام فيه استهزاء ، ونقض صريح لكل بنود الاتفاق التي عقدها النبي معهم . بل وصل بهم الأمر أن حاولوا إشعال الفتنة بين الأوس والخزرج، وقد أوشكت الحرب أن تقوم في المدينة بسبب يهود قينقاع لولا أن النبي أصلح ما أفسده اليهود بين الأوس والخزرج، ومما زاد الطين بلة أن يهود قينقاع عمدو إلى كشف عورة سيدة مسلمة في مكان عام وتواطئوا على ذلك، مما اضطر النبي إلى إجلائهم، فصار إليهم بجيش - واستخلف على المدينة أبا لبابة بن عبد المنذر، وكان الذي حمل لواء الجيش يومئذ حمزة بن عبد المطلب – فحاصرهم النبي أشد الحصار، حتى قذف الله في قلوبهم الرعب، فنزلوا على حكم رسول اللهﷺ وأمر رسول الله أن يُجلوا من الدولة، ووكل بإجلائهم عبادة بن الصامت١، وأمهلهم ثلاثة أيام. وبالفعل خرجوا أذلة من الدولة، وهاجروا إلى أذرعات بالشام٢ .

---

١ وكان لهم من حلفه مثل الذي لهم من عبد الله بن أبي ابن سلول، فجعلهم إلى رسول الله ﷺ، وتبرأ إلى الله تعالى ورسوله من حلفهم، وقال: يا رسول الله: أتولى الله ورسوله والمؤمنين وأبرأ من حلف هؤلاء الرجال. (الصالحي ، ج ٤ / ص ١٨٠)

٢ انظر: ابن سعد ٢ / ٢٩، الصالحي ٤ / ١٨٠، ابن القيم : زاد المعاد ٣ / ١٦٩

المبحث الثاني
آداب الحروب

المطلب الأول : موقف الحليف من حليفه المنتصر:

إن العرف الأخلاقي يقتدي أن يفرح الحليف إذا انتصر حليفه على العدو الأكبر للدولة، ولكن يهود المدينة أظهروا الحقد والعداوة لحلفائهم المسلمين جراء انتصارهم على قريش الوثنية، فلما بعث رسول الله ﷺ حين فرغ من بدر بشيرين إلى أهل المدينة – زيد ابن حارثة و عبد الله بن رواحة – يبشران الأمة بانتصار المسلمين في موقعة بدر، فلما بلغ ذلك كعب بن الأشرف قال لمن أخبره : ويلك أحق هذا ؟ هؤلاء ملوك العرب وسادة الناس [يعنى قتلى قريش] ثم خرج إلى مكة، فجعل يبكى على قتلى قريش، ويحرض على رسول الله ﷺ[1]

ولما أعلن يهود قينقاع صراحة نقضهم للعهد، وحقدهم على انتصار المسلمين في بدر، وتطاولهم المتزايد على الإسلام ونبي الإسلام، وعمالاتهم الصارخة للوثنين، توجه نبي الله إلى ديار بني قينقاع يحذرهم من مغبة هذه التصرفات السيئة اللاأخلاقية، فجمع اليهود في سوق قينقاع، وألقى عليهم موعظة دعوية، وحذرهم من أن يصيبهم ما أصاب قريشًا في بدر.

غير أنهم ردوا على النبي بسوء الأدب وسيء الأخلاق والتهديد والوعيد له، فقالوا : " يا محمد، لا يغرنك من نفسك أنك قتلت نفراً من قريش كانوا أغماراً لا يعرفون القتال، إنك لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس، وأنك لم تلق مثلنا !" .. فأنزل الله تعالى : " قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ الله وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاء إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَّأُوْلِي الأَبْصَارِ " [آل عمران ١٢، ١٣] [2].

كان هذا هو سلوك يهود قينقاع مع حلفائهم من المسلمين، وهو نموذج سيء لعلاقة الحليف بحليفة، وكان أحرى بهؤلاء اليهود أن يشاركو المسلمين فرحتهم بالنصر، ويباركوا لهم الظفر .. فهذه هي أخلاق الحلفاء في المنشط والمكره .

---

١ البيهقي: السنن الكبرى ٩ / ١٨٣

٢ البيهقي: السنن الكبرى ٩ / ١٨٣، الطبري: تاريخ الطبري ٢ / ١٧٢

obeikandl.com

المطلب الثاني: حينما يتحول الحليف إلى معول هدم لوحدة الصف :

لقد تحولت طائفة اليهود داخل الدولة إلى جماعة فتنة، وتفريق بين عناصر الأمة وفصائل الدولة الناشئة، فقد مَرّ شَاسُ بْنُ قَيْسٍ اليهودي - وكان شيخًا من شيوخ اليهود وكبرائهم، عظيم الكفر شديد الضّغَنِ عَلَى المسلمين، شَدِيدَ الْحَسَدِ لَهُمْ - عَلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهّ ﷺ مِنْ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ . فِي مَجْلِسٍ قَدْ جَمَعَهُمْ يَتَحَدّثُونَ فِيهِ، فَغَاظَهُ مَا رَأَى مِنْ أُلْفَتِهِمْ وَجَمَاعَتِهِمْ وَصَلَاحِ ذَاتِ بَيْنِهِمْ عَلَى الْإِسْلَامِ بَعْدَ الّذِي كَانَ بَيْنَهُمْ مِنْ الْعَدَاوَةِ فِي الْجَاهِلِيّةِ . فَقَالَ : " قَدْ اجْتَمَعَ مَلَأُ بَنِي قَيْلَةَ بِهَذِهِ الْبِلَادِ ! لَا وَاللهّ مَا لَنَا مَعَهُمْ إذَا اجْتَمَعَ مَلَؤُهُمْ بِهَا مِنْ قَرَارٍ ! ". فَأَمَرَ فَتًى شَابّا مِنْ يَهُودَ كَانَ مَعَهُمْ فَقَالَ: " اعْمِدْ إلَيْهِمْ فَاجْلِسْ مَعَهُمْ، ثُمّ اُذْكُرْ يَوْمَ بُعَاثَ وَمَا كَانَ قَبْلَهُ، وَأَنْشِدْهُمْ بَعْضَ مَا كَانُوا تَقَاوَلُوا فِيهِ مِنْ الْأَشْعَارِ" .فَفَعَلَ . فَتَكَلّمَ الْقَوْمُ عِنْدَ ذَلِكَ وَتَنَازَعُوا وَتَفَاخَرُوا وتنابذوا، حَتّى تَوَاثَبَ رَجُلَانِ مِنْ الْحَيّيْنِ عَلَى الرّكْبِ: أَوْسُ بْنُ قَيْظِيّ أَحَدُ بَنِي حَارِثَةَ بْنِ الْحَارِثِ مِنْ الْأَوْسِ ، وَجَبّارُ بْنُ صَخْرٍ، أَحَدُ بَنِي سَلَمَةَ مِنْ الْخَزْرَجِ ، فَتَقَاوَلَا، ثُمّ قَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ : إنْ شِئْتُمْ رَدَدْنَاهَا الْآنَ جَذَعَةً١ ! فَغَضِبَ الْفَرِيقَانِ جَمِيعًا ، وَقَالُوا : قَدْ فَعَلْنَا !

وتواعدوا على أن يلتقوا في يومهم ذاك بموضع (الحرة) واندفعوا في دروب المدينة يتداعون إلى الحرب وهم يتصايحون: السلاح السلاح.

وجمت دار الهجرة وهي تسمع صيحة الحرب.

وكادت أن تقوم الحرب الأهلية .

وجاء النبي ﷺ في جماعة من الْمُهَاجِرِينَ ، فأدرك الأوس والخزرج في الحرة وقد هموا بقتال.

فَقَالَ : " يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ !! اللهّ اللهّ !! أَبِدَعْوَى الْجَاهِلِيّةِ وَأَنَا بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ بَعْدَ أَنْ هَدَاكُمْ اللهُ لِلْإِسْلَامِ، وَأَكْرَمَكُمْ بِهِ، وَقَطَعَ بِهِ عَنْكُمْ أَمْرَ الْجَاهِلِيّةِ، وَاسْتَنْقَذَكُمْ بِهِ مِنْ الْكُفْرِ، وَأَلّفَ بِهِ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ ؟ !! "٢ .

فَعَرَفَ الْقَوْمُ أَنّهَا نَزْغَةٌ مِنْ الشّيْطَانِ، وَكَيْدٌ مِنْ أعدائهم الخونة، وتذكروا ميثاق

---

١ يعني إن شئم رددنا هذه الحرب من جديد

٢ ابن هشام ١ / ٥٥٤، ٥٥٥، و ذكره السيوطي في الدر ٢ / ٥٧ وعزاه لابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

الوحدة الإسلامية والأخوة الإيمانية الذي أخذه رسول الله عليهم، فَبَكَوْا، وَعَانَقَ الرّجَالُ مِنْ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، ثُمّ انْصَرَفُوا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ سَامِعِينَ مُطِيعِينَ قَدْ أَطْفَأَ اللهُ عَنْهُمْ كَيْدَ اليهود.

وهذا نموذج مما كان اليهود يفعلونه ويحاولونه من إثارة القلاقل والفتن داخل الدولة، وإقامة العراقيل في سبيل وحدة الصف، وقد كانت لهم خطط شتي في هذا السبيل. فكانوا يبثون الدعايات الكاذبة، ويؤمنون وجه النهار، ثم يكفرون آخره؛ ليزرعوا بذور الشك في قلوب الضعفاء، وكانوا يضيقون سبل المعيشة على من آمن إن كان لهم به ارتباط مالى، فإن كان لهم عليه يتقاضونه صباح مساء، وإن كان له عليهم يأكلونه بالباطل، ويمتنعون عن أدائه وكانوا يقولون : إنما كان علينا قرضك حينما كنت على دين آبائك، فأما إذ صبوت فليس لك علينا من سبيل ..كانوا يفعلون كل ذلك على رغم المعاهدة التي عقدوها مع رسول الله ﷺ، وكان رسول الله ﷺوأصحابه يصبرون على كل ذلك؛ حرصاً على وحدة الصف، وعلى بسط الأمن والسلام في المنطقة١ .

المطلب الثالث : حماية الدماء والأعراض واجب على كل الفصائل :

كَانَ مِنْ أَمْرِ بَنِي قَيْنُقَاع – أيضًا – أَنّ امْرَأَةً مِنْ المسلمين قَدِمَتْ بشيء تريد أن تبيعه بِسُوقِ بَنِي قَيْنُقَاعَ ، وَجَلَسَتْ إلَى صَائِغٍ يهودي بالسوق، فَجَعَلُ اليهود يُرِيدُونَهَا عَلَى كَشْفِ وَجْهِهَا، فَأَبَتْ السيدة المسلمة، فَعَمِدَ الصّائِغُ إلَى طَرَفِ ثَوْبِهَا فَعَقَدَهُ إلَى ظَهْرِهَا، فَلَمّا قَامَتْ انْكَشَفَتْ عورتها، فَضَحِكُوا منهَا ، فَصَاحَتْ . فَوَثَبَ رَجُلٌ مِنْ الْمُسْلِمِينَ عَلَى الصّائِغِ فَقَتَلَهُ، وَشَدّتْ الْيَهُودُ عَلَى الْمُسْلِمِ فَقَتَلُوهُ .. فَاسْتَصْرَخَ أَهْلُ الْمُسْلِمِ الْمُسْلِمِينَ عَلَى الْيَهُودِ ، فَغَضِبَ الْمُسْلِمُونَ فَوَقَعَ الشّرّ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ بَنِي قَيْنُقَاعَ٢ .

وبهذا الصنيع المشين من هؤلاء الحلفاء، يكونوا قد أكدوا نقضهم العهود والعقود مع كل فصائل الدولة .

فقد كشفوا عورة امرأة مسلمة في مكان عام.. " إن عرض المرأة المسلمة كفيل أن يشعل حربًا رهيبة مع العدو .."٣ .. فضلاً عن جريمة قتل المسلم .

---

١ انظر: صفي الرحمن المباركفوري ٢٧٥

٢ ابن هشام ٢ / ٤٧، والصالحي ٤ / ص ١٧٩، و السهيلي ٣ / ٢٢٤، وابن كثير: السيرة النبوية ٣ / ٦، وابن سيد الناس ١ / ٣٨٦

٣ منير محمد الغضبان ٢٠٩

وحماية الدماء والأعراض من الأموار الواجبة على كل فصيل وحليف .

المطلب الرابع : حلم القائد على السفهاء :

لما فعل يهود قينقاع ما فعلوا، ونزل فيهم قول الله تعالى:

"وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاء إِنَّ اللهّ لاَ يُحِبُّ الخَائِنِينَ"[الأنفال:٥٨]

حَاصَرَهُمْ رَسُولُ اللهّ ﷺ خَمْسَ عَشْرَةَ لَيْلَةً، حَتّى نَزَلُوا عَلَى حُكْمِهِ، في أموالهم ونسائهم وذريتهم، فأمر بهم فكُتفوا، وحينئذ قام حليفهم القديم عَبْدُ اللهّ بْنُ أُبَيّ ابْنُ سَلُولَ المنافق، بمطالبة النبي-ﷺ- بطريقة غير مهذبة - بإصدار العفو عن اليهود، فَقَالَ : يَا مُحَمّدُ أَحْسِنْ فِي مَوَالِيّ !

وَكَانُوا حُلَفَاءَ الْخَزْرَجِ ، فَأَبْطَأَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللهّ ﷺ فَقَالَ يَا مُحَمّدُ أَحْسِنْ فِي مُوَالِيّ !

فَأَعْرَضَ عَنْهُ . فَأَدْخَلَ يَدَهُ فِي جَيْبِ دِرْعِ١ رَسُولِ اللهّ ﷺ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهّ ﷺ: " أَرْسِلْنِي ! "، وَغَضِبَ رَسُولُ اللهّ - ﷺ- لسوء تصرف المنافق ، حَتّى رَأَوْا لِوَجْهِهِ ظُلَلاً، ثُمّ قَالَ : " وَيْحَك أَرْسِلْنِي ! !" ، قَالَ : لَا وَاَللهّ لَا أُرْسِلُك حَتّى تُحْسِنَ فِي مُوَالِيّ، أَرْبَعَ مِئَةِ حَاسِرٍ وَثَلَاثُ مِئَةِ دَارِعٍ، قَدْ مَنَعُونِي مِنْ الْأَحْمَرِ وَالْأَسْوَدِ تَحْصُدُهُمْ فِي غَدَاةٍ وَاحِدَةٍ، إنّي وَاَللهّ امْرُؤٌ أَخْشَى الدّوَائِرَ" .. فَقَالَ رَسُولُ اللهّ ﷺ : " هُمْ لَك" ٢ .

وفي هذا النموذج نرى حلم القائد على سفهاء قومه.. رغم سوء أدب زعيم المنافقين.

* * *

١ كان الصحابة يسمونها ذَاتَ الْفُضُولِ

٢ ابن هشام ٢ / ٤٨